بيرم التونسي

أمير شعراء العامية

تمر هذه الأيام الذكرى الـ "٤٨" لرحيل الشاعر الكبير "بيرم التونسي" فقد رحل عن دنيانا فى ١٥ يناير عام ١٩٦١م عن عمر يناهز الثامنة والستين بعد أن عاش حياة مضطربة وغير مستقرة، امتزج فيها قلق الحياة بالقلق الإبداعى المبكر، ومر بالعديد من التجارب النفسية والجسدية التى عاشتها وأنضجت موهبته، وشحذت وجهاته الفكرية وأساليبه التعبيرية الساخرة.

فكان المجتمع المصرى والعربى يعيش فى تلك الفترة تحت نير الاحتلال الأجنبى وما ترتب عليه من مظالم ومفاسد حركت وجدان بيرم، أيقظت روحه الثائرة التى عرفت الحرمان والظلم، وذاقت من الآلام الكثير، فكتب وأبدع أروع القصائد الرافضة والغاضبة، فأصبح نموذجاً للشخصية العربية الثائرة.

ولقد أنشد بيرم قصائد كانت وما زالت أجمل ما قيل فى الشعر الشعبى والتقى بالموسيقى "سيد درويش" فألهبا معا الجماهير ضد الاحتلال والفساد السياسى والاجتماعي.

النشأة والتكوين

ولد محمود بيرم التونسى بالإسكندرية عام ١٨٩٣م بحى السيالة بعد ثلاث سنوات فقط من نزوح والده بأسرته إلى الإسكندرية فراراً من مدينة تونس.

ألحقه والده بكتاب الشيخ "جاد الله" بحى السيالة وسرعان ما هجره بعد أن تعلم مبادئ القراءة والحساب، وحفظ أجزاء من القرآن الكريم لقسوة الشيخ، كما كان والده يحرص على أن يجلسه فى مجالس العلماء وشيوخ الأزهر بمسجد سيدى أبى العباس المرسي، فتعلم الأدب وحفظ الكثير من الشعر وأصول اللغة.

ولقد حاول والده أن يلحقه بالأزهر الشريف، لكن المنية لم تسعفه فقد توفى وابنه ما زال ابن الرابعة عشرة، وسرعان ما تزوجت والدته بعد وفاة أبيه، فبدأ يعتمد على نفسه ففتح دكانا للبقالة بحى السيالة وسرعان ما حول بيرم هذا الدكان الصغير إلى منتدى أدبى يجمع الشعراء والأدباء يناقشون فيه قصائدهم وقصصهم ويتحدثون عن أمور الأدب والسياسة والفن، وكان هذا الدكان هو الركيزة الأساسية فى ثقافة بيرم إذ كان يعكف على قراءة الأوراق الصفراء للكتب والمجلات التى كان يشتريها بالأقة ليبيع فيها للزبائن، ارتبطت طفولة بيرم بالحى الشعبى الذى تربى فيه، والصورة البائسة التى كان الشعب المصرى يعانى منها

فى تلك الفترة، والتقطت أذانه الأمثال الشعبية والمحاورات وثقف نفسه بنفسه عن طريق قراءة أمهات الكتب التى عكف عليها منذ صباه مثل الأغانى للأصفهاني، والعقد الفريد، والفتوحات المكية لابن عربي، وهو كتاب يتوه فيه كبار العارفين حتى كون – بيرم – ثقافة واسعة وألم بالكثير من المعارف التى أنضجت موهبته الإبداعية وانطلقت أشعاره ساخرة ولاذعة تنتقد كل شئ من حوله بعين لاقطة وفكر ناضج ثوري، فكان لا يخشى سلطة ولا جاها ولا منصبا وكان لا يحركه سوى ضميره الإبداعى فقط، حتى أطلق عليه فى ذلك الحين "فنان الشعب" لأنه عبر عن همومهم وأحزانهم وتبنى قضاياهم بحب وصدق بالغين.

ولما تعاظمت الشكوى من أفعال وأعمال المجلس البلدى الذى كان مهمته فرض الرسوم والضرائب على الشعب، ولم ينج "بيرم" مثل غيره من المجلس البلدى الذى قام بالاستيلاء على كل ما يملك، فكتب قصيدة زجلية رائعة تحمل عنوان "المجلس البلدي" يقول فيها:

"يا بائع الفجل بالمليم واحدة/ كم للعيال وكم للمجلس البلدي/ إذا الرغيف أتى فالنصف أكله/ والنصف أجعله للمجلس البلدي/ كان أمى أبل الله تربتها/ أوصت وقالت أخوك المجلس البلدي".

وكانت هذه القضية سبباً فى أن يذيع صيت "بيرم" فى الإسكندرية كلها واشتهرت تلك القصيدة لدرجة أن حفظها الناس وكتبها الخطاطون وعلقوها على الدكاكين، وقام أحد موظفى البلدية من الأجانب يترجم هذه القصيدة وطبعت بالعربية والإنجليزية ما يقرب من ١٤ ألف نسخة أنقذت بيرم من الإفلاس الذى حاصر به فى بدء حياته.

فى تلك الأثناء التقى بيرم بالشيخ سيد درويش وعملا معا وألف له بيرم عدة أوبريتات أشهرها أوبريت "شهر زاد" و"البروكة" كما ألف له عدة مقطوعات غنائية أشهرها "أنا عشقت وشفت غيرى كثير عشق/ عمرى ما شفت المر إلا فى هوالك".

وحين قامت ثورة ١٩١٩ كان من فرسانها الأوائل ونظم الأشعار فيها وكانت أول مجلة يكتب فيها تصادر، فأصدر مجلة باسم "المسلة" ولكى لا تصادر كتب تحتها "لا جريدة ولا مجلة" ولكنه رفض أن يمنح رخصة فأخذ يهاجم كل المفاسد حتى قام بالهجوم على الملك نفسه، ورغم ذلك لم ييأس فأصدر صحيفة أخرى باسم "الخازوق" التى اتخذها منبراً لأزجاله التى تتعرض للاحتلال البريطانى على مصر، ولكن الاستعمار عطلها بعد عددين فقط، ولم يجد بدا أن يترك الإسكندرية ويغادر إلى القاهرة.

رحلته فى القاهرة

وفـى القاهـرة لم تهـدأ ثـورة بـيرم بـل أصبـح فـى قلـب الأحـداث وواصـل حربـه بأزجالـه اللاذعـة بـلا هـوادة ضـد الاسـتعمار، ممـا دفـع السـلطات الحاكمـة إلى السـعى لـدى الإنجليـز حتـى صـدر الأمـر بنفـى بـيرم إلى تونس موطـن أجداده.

ووصلـت إليـه الأخبـار وهـو فـى تونـس أن مصـر أصبحـت ملكيـة وأصبـح الملـك فـؤاد ملـكاً وذلـك بموجـب إعـلان تصريـح ٢٢ فبرايـر عـام ١٩٢٢، فيرسـل بـيرم إليـه مـن تونـس ببطاقـة تهنئـة جـاء فيهـا "ولـما عدمنـا بمصـر الملـوك/ جابـوك الإنجليـز يـا فـؤاد قعـدوك/ تمثـل علـى العـرش دور الملـوك/ لا مصـر اسـتقلت ولا يحزنـون"

ومـن تونـس يسـافر "بـيرم" إلى فرنسـا ليعيـش فيهـا حيـاة الضنـك، ويواجـه أيامـاً قاسـية ويصاحـب الجـوع والتشـرد ويضطـر إلى تعاطـى أشـق الأعمـال، فيعمـل حمـالا وعامـلا فـى مصنـع للصلـب ثـم فـى مصنـع للبسـكويت ويشـتغل فـى مصنـع للخمـور وخادمـاً فـى أحـد المتاجـر، ورغـم قلـة مـوارده الماليـة إلا أنـه كان يبعـث بأزجالـه إلى الصحـف فـى القاهـرة، وبعـد عـام واحـد مـن النفـى حـاول بـيرم الهـروب علـى ظهـر سـفينة مهاجـرة إلى الإسـكندرية ونـزل خلسـة مـن السـفينة إلى الإسـكندرية ومنهـا إلى القاهـرة وذلـك فـى عـام ١٩٢٢.

حيث قال: "الأولة آه/ والثانية آه/ والثالثة آه/ الأولة مصر، وف مصر/ قالوا تونس ونفوني/ جزاة الخير وأحساني/ والثانية تونس، وفيها الأهل جحدوني/ وحتى الغير ما وافاني/ والثالثة باريس/ وف باريس جهلوني/ وأنا موليير فى زماني"، وظل بيرم يتخفى متنقلاً من مكان لأخر لمدة جاوزت الشهور السبعة، لكن أمره انكشف وألقت السلطات القبض عليه فى نهاية عام ١٩٢٣ وقامت بترحيله مرة أخرى إلى فرنسا.

ثمن الغربة

وقد تأثر بيرم بسنوات الغربة وكتب أجمل أشعاره، ويلتقى بعزيز عيد وفاطمة رشدى فى فرنسا ويكتب لهم مسرحية مقتبسة تحت اسم "ألف ليلة وليلة" وبعدها "عقيلة" واتجه بعدها إلى السينما فقام مع مجموعة من أصدقائه الفنانين بعمل فيلم "أنشودة الفؤاد" فى تلك الأثناء ساءت الحالة الاقتصادية فى فرنسا وبدأوا فى ترحيل الكثير من المغتربين. فتم ترحيل بيرم إلى تونس مرة أخرى، فأصدر مجلة "الشباب" هاجم فيها السلطات الفرنسية فى تونس، فأغلقت مجلته ورحلته ليتنقل بين سوريا ولبنان. ولم يعجب السلطات الفرنسية نشاط بيرم فقاموا بترحيله مرة أخرى إلى فرنسا، وحينما قامت السفينة وهى فى طريقها إلى فرنسا مرت ببور سعيد، ووقفت للتزود بالوقود

والمؤونة واستطاع "بيرم" أن يتسلل منها ويهرب إلى القاهرة فى ٨ أبريل عام ١٩٣٨، هكذا أقام "بيرم" فى مصر بصفة غير رسمية إلى أن قامت ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ فمنحته الجنسية المصرية عام ١٩٥٤، ويبدأ التعاون بين بيرم وأم كلثوم التى غنت من كلماته "أنا وأنت" و"الأولة فى الغرام" و"وهو صحيح الهوى غلاب" وغير ذلك من الأغانى الراقية، كما تعاون بيرم مع مجموعة من الفنانين البارزين مثل: فريد الأطرش، وأسمهان، وشادية، ونور الهدى.

كما قدم العديد من الأعمال الإذاعية أشهرها حلقات "لهب السلطان" و"عزيزة ويونس" و"فوازير رمضان" و"سيرة الظاهر بيبرس" وغيرها الكثير من الأعمال.

فى رثائه

وما لبث أن أرضى القدر بقسوته على الشاعر الكبير، ليصاب جسده بمرض الربو، ولكنه ظل إلى آخر لحظة من حياته من حملة الأقلام الحرة الجريئة ووافته المنية هناك، ووارى جثمانه الثرى فى ١٩٦١/١/٩ فى مقابر باب الوزير فى مدفن البكباشى محمد عارف.

وقد رثاه الشاعر صلاح جاهين بقصيدة حزينة تصور فيها أن عروس الشعر تسأله عن المتوفى:

"مين اللى مات يا شاب يابو دموع

قال عروس الشعر للموجوع

مين اللى مات يا شاب ليكون أبويا

أنا قلت: أبونا كلنا يا صبية"

وقال فى رثائه أيضا:

"حد ما يعرفش بيرم يا رفاق؟

ضحكته المرة اللى بتنقط عسل

قلت: خير إن شاء الله، قال: فين الديوان

فين ديوان بيرم ما بطلتوش كسل

قلت له: معلش، قال: معلش إيه

وأنا تايه عن بلدنا يا ولد؟

يا بلدنا يا مصر آه منك بلد"

رحم الله الشاعر الفذ وأمير شعراء العامية بلا منازع "بيرم التونسي" الذى رحل وخلف وراءه تراثا شعريا عبقريا يعجز أى شاعر مهما كانت موهبته أن يأتى بمثله.

★ نشر فى جريدة القاهرة فى ١٣ يناير ٢٠٠٩

obeikandl.com